تطبيق 12/ الشّعراء الشّناقطة وهوس القصيدة الجاهليّة

إنّ الشعر العربي ولد وشب وترعرع في جزيرة العرب، وقد وفد مع الفاتحين إلى حيث وصل الفتح الإسلامي، ثم اطردت وفادته مع الحجاج وطلبة العلم منتقلا معهم يسير إلى حيث ساروا، وينزل إلى حيث نزلوا، ويعطي لكل ذي موهبة فنية ما شاء من فرص الظهور والنبوغ والخلود، ولذلك فإن البحث أو الحديث في طور النشأة عن محاولات أولى غير مكتملة –قس نظرنا– لا يصادف محل ورود، فالشعر جاء هنا مكتمل الملامح والعمود، احتفى به من احتفى، وجفاه من جفا، ومن تثقف بثقافته، وراودت نفسه صناعته وجد الطريق معبدا، وسار فيه أو عجز.

1.التّعريف بالشّعر الشنقيطي:

عَرفت المنطقة المسماة بالمغرب العربي هجرات تاريخية لجماعات وزمر من أبناء القبائل العربية الوافدين من عقر مضارب العرب الأوائل ومناخ خيامهم، وكان لذلك أثره الذي أسهم في تشكيل هوية باقية، كان من تمثّلاتها نشاط أدبي، إذ ظهرت كنائن موريتانيا (شنقيط) وقد حفلت ببعض ذخائره وتوطد ذلك المعطى بها معبّرا عن نفسه في تسمية من نوع تسميات هي مما درج عليه جانب من أسلوب التعريف بالدول عبر توصيفها بمليونيات تقتنص من المجتمعات بعض ما يبرز في تفاصيل .

وإذا كانت بعض هذه التسميات وليدة مسيرة شاقة بدرب غير ممهّد بالزهور، فإن الشعر كان كذلك أيضا في ما يخص بلاد شنقيط، فلم تفتح جهات البلاد البوابة للشعر بترحيب أول ما كانت أصداء منه تنداح في جنبات صحراء تحاكي بيداء الجزيرة العربية وتعكس شبهًا واضحًا بها لمن يجيل الطرف في مرابعها وأنحائها المختلفة.

وقد تضمنت المعلومات الموضحة لعناء التجربة الشعرية، والصعوبات التي اعترضتها، ما يتعلق بموقف المجتمع الذي "عاقبت" قبيلة منه أحد أبنائها حين نبغ شاعرًا يرتاد مجازات القريض، حسب ما تنقله المصادر، وبعد ما تبلورت بدايات تحقيق الشرعية للقول الشعري في المجتمع وبناء المصالحة معه في اتجاه الترسيم كان هناك بُعد آخر لم يكن حليفا للحركة الأدبية، ويتمثل في عدم التوثيق وحفظ ما تجود به قرائح كتَبة القصيد، فضاع منسوب كبير من الإنتاجات في طيّات أمد لا يحدّه المحددون ولا يعدّه العادّون ويتمارون بشأن بداياته، كما يتضافر مع تعذّر التوثيق غياب فكرة تأليف التراجم في الاهتمامات الثقافية والمعرفية عموما بذلك الصقع، في أوليات نشوئه، وهنا يقول الدكتور جمال الحسن:

كما تشير التعريفات البحثية أحيانا إلى غياب المعلومات المتعلقة بصاحب أبيات أو حكاية أدبية معينة.

وحتى إذا ما تم التوثيق والتأليف، فإنه رهين الذاكرة، فذلك ما وقع لأقدم مؤلف عن الحركة الشعرية في موريتانيا، وقد وصف العالم والأديب الشهير محب الدين الخطيب هذا السياق بقوله "نحن نعرف معرفة شخصية الأستاذ العلامة الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي رحمه الله وكان يحفظ الشعر الجاهلي كله، ويحفظ شعر أبي العلاء المعري كله، ولو رحنا نعدّ ما يحفظه لكان شيئا عظيما، وكتابه (الوسيط في تراجم علماء وأدباء شنقيط) كتبه من أوله إلى آخره من حفظه إجابة لاقتراح شيخنا الشيخ طاهر الجزائري، وفي هذا الكتاب أنساب أهل شنقيط رجالًا ونساء، وذكر قبائلهم، وما نظموه وما يؤثر عنهم من مؤلفات وأخبار، ولم يكن لذلك مرجع يرجع إليه قبل كتاب الوسيط."

وإذا كان هذا التدوين لم يمكّن من الوصول إلى ما يتعلق بالحقب الأولى والنصوص التأسيسية التي يفترض منطقيا أن تكون حلقة استهلالية في المسار التاريخي، فإن ذلك يشمل بظلاله مختلف آداب البقعة الشنقيطية عموما، فقد جاء في كتاب "الشعر والشعراء في بلاد موريتانيا" أن أقدم ما دوّن من أدب اللغة الصنهاجية التي تعد الأقدم في المنطقة لا يتجاوز في الحيز الزماني عتبة القرن التاسع الهجري.

ولعل فكرة الحلقة المفقودة هذه تحيلنا إلى التساؤلات القديمة لمدوّني الأدب الجاهلي حين لم يعثروا على البدايات التي لا يشي بها فقط واقع النصوص المكتملة بناء، وإنما تشير إليها كذلك مضامين المحتوى حين نقرأ ما أورده امرؤ القيس بقوله:

فلقد كان ابن خذام –في ما يبدو– نموذجا مثاليا لامرئ القيس، لكنّ ما يتعلق بهذه الشخصية من تفاصيل يبدو أنه قد ضاع في غياهب الأيام، وكذلك ربما اختفى على امتداد حقب منطقة شنقيط ما يتعلق بخَلَف لذلك السلف الأدبي.

أما العوائق والمناطق المظلمة من تاريخ مسيرة الأدب والشعر، فلم تمنع في النهاية من اكتمال مدارس ومناهج قاومت حتى بلغت بأمان شاطئ التدوين فرصدها الموثّقون وهي في أوج ازدهارها وقوّة سبكها.

وهنا تنزاح الستارة لنا فجأة عن مشهد حافل بالشعر في بلاد شنقيط في ما بعد القرن العاشر الهجري، ولا يكفي صدى النصوص التي كان يعجّ بها الفضاء، وإنما نقف على ما بلغته الذهنية الشعرية من تجذّر وأخذ بالألباب وترسخ بوجدان الأديب؛ فمحمد ولد الطلبة (1272هـ) قال بشأن قصيدة عارض بها الشماخ بن ضرار" أرجو من الله أن أقعد أنا والشماخ بن ضرار في ناد من أهل الجنة وننشد بين أيديهم قصائدنا لنعلم أيها أحسن"، وهو ما يكشف جانبا من هذا البعد المتعلق بالسيطرة الأدبية في المجال الثقافي.

2.الشّعر الشنقيطي والقصيدة الجاهليّة

يتقاطع الشعر الشنقيطي (الحسّاني) مع الشّعر الجاهلي في نقاط عدّة أهمهما:

أ. من حيث القرابة العرقية: فبنو حسان الذين بصموا اسمهم على هذا الشعر، وعلى ثقافة فضاء البيظان الممتد من موريتانيا الى جنوب الجزائر، وجنوب المغرب، وشمالي مالي، إلى منحنى نهر النيجر، هؤلاء الحسانيون هم عرب المعقل القادمون من أعماق الجزيرة العربية مهد الشعر الجاهلي، عبر رحلة طويلة في الزمان والمكان والإنسان، استفادوا خلالها من كل ألوان الحضارات التي اجتازوها عابرين، دون أن تطمس هويتهم البدوية العربية المستحكمة.

ب– من حيث تطابق البيئتين: فقد وجدت القبائل الحسانية في هذا الإقليم نسخة طبق الأصل من بيئتها الصحراوية في جزيرة العرب، «فألقت عصاها واستقر بها النوى »، وأخذت تمارس الأنساق الثقافية والحياتية ذاتها التي كانت وكان أجدادها يمارسونها هنالك، من انتجاع المراعي، والتشبث بأذيال الإبل، والصراعات والحروب القبلية، إلى غير ذلك من العلاقات الاجتماعية، وهكذا تصبح العلاقة بين الشعرين الجاهلي والحساني مظهرا مشرقا من مظاهر عراقة الثقافة الحسانية، وتأصيلا لكيانها الضارب الجذور في عروبته، على الرغم من أن أمه قد "انتبذت به مكانا قصيا" في منتهى حدود العالم العربي المصاقبة لإفريقيا السوداء.

3.مضامين الشّعرين:

أ. الأرض: التي تتسم في الفضاء الصحراوي بشح الموارد الضرورية لحياة الانسان ورفاهيته وأمنه، مثل الكلإ والماء والحصانة، وهذا ما يجعل علاقة هؤلاء الصحراويين تكاد ترتبط بالسماء أكثر من الأرض، فهم أبناء غيوم وأهل مزنة، وذلك يتطلب الترحل الدائم وارتياد مواقع المياه والمراعي.

مثل: الوقوف على الطلل المطموس

حيث يبدو الطلل أحد مكونات الأرض اوالوطن بالمفهوم الواسع، وتعتبر الوقفة أمامه وقفة وجودية ،طالما رآى فيها الشاعر أبعادا نفسية وفكرية تكثف اللحظة والبقعة، في رؤية تتجاوز عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ويلتبس فيها المرئي بالمخفي، ويتداخل الماضي والحاضر والمستقبل. ولعل خير مثال لذلك في الجاهلية هو امرؤ القيس أول أمير للشعراء وأول من وقف بالأطلال وأستوقف وبكى و استبكى في مطلع معلقته:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

وكذلك قول النابغة الذبياني:

أهاجك من سعداك مغنى المعاهد بروضة نعميّ فذات الأساود

تعاورها الأرواح ينسفن تربها وكل ملثٍ ذي أهاضيب راعد

وغير بعيد من الشاعرين الجاهليين رغم شساعة المسافة الزمانية والمكانية . يقف الشاعر الحساني أمام طلله المطموس، وقفة تكاد تكون أروع وأعمق من وقفة سابقيه:

كان اذريِّع لتوين ازوينْ وبل اللّعب ولاه حافِ

واعلَ عاد اذريِّع لتوينْ ما يلعب يكون السّافي

راعِ يالدلال الدّيارْ مَبعدهم عادُ من لعمارْ

هاذ دار لونست لَبصارْ ابلدها مستدرس خافِ

واعليه السّاف كل انهار يلعب مستقبل ومقافِ

ج. المرأة:

تعتبر المرأة هي شقيقة الوطن أو هي الوطن الحقيقي عند الشاعر الصحراوي، حسب ما توحي به الإلماعات السابقة، ومهما يكن فإن علاقة الشاعر بالمرأة، في مدونتي الشعر الجاهلي والشعر الحساني، تأخذ تجليات متعددة، فهي تتأطر ضمن: الملذات التي كان يعتبر الجاهلي والحساني أن التشبث بها من مرتكزات الفتوة، على الرغم من الاختلاف في ماهيتها وفي عددها، حيث يراها امرؤ القيس «خلاّت من العيش أربعا» يحرص على مراقبتها دائما، بينما يعتبر طرفة بن العبد أنها «ثلاث هن من عيشة الفتى». ويتفق الشاعران أن هذه الخلات لولاها ما كان للحياة طعم، ولا كانا يباليان بأجلهما المحتوم، يقول امرؤ القيس:

جزعتُ ولم اجزع من البينِ مجزعا وعزيتُ قلبا بالكواعب مولعا

وأصبحتُ ودعتُ الصبا غير أنني أراقب خلات من العيش أربعا

ويقول طرفة في السياق ذاته:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم احفل متى قام عوّدى

فمن هن سبقي العاذلات بشربةٍ كميتٍ متى ما تعلَ بالماء تزبد

وعلى الضفة الأخرى للجاهلية حيث الشعر الحساني، يرى صوت الرفاهية أن خلاته هو الآخر أربع، يتشبث بها ومن ضمنها المرأة، فيقول:

مانبغ ماهَ الطيبْ والديرَ والبابورْ

واميمَ منت احبيبْ والغفور الشكورْ

بينما يرى صوت الفارس العاشق المرأة ضمن خصلتين يتشبث بهما، ولا ثالثة لهما،إذ يقول محمد المختار ولد الحامد:

والله عظَّمت الجَوَّادْ مانبغ يالحيْ القيُّومْ

ماهُ يومِ عند العرادْ واللّ يومْ البارود اقومْ

د.الأخلاق

وهي تمثل عند الشاعرين الجاهلي والحساني دستورا مستوحى من تراكم التجارب والتقاليد والشرائع معا، بحسب ما تمليه قساوة الصحراء، التى تتطلب قسطا كبيرا من الصبر والكرم والإيثار فى ظل شح الموارد ، وهذا ما تحض عليه:

ا–الوصايا :التى هي تعويذة الآباء للأبناء وميراثهم الرمزي ، ونبراسهم الوهاج الذى يضىء لهم دروب الحياة المدلهمة ، وفى هذا الصدد يقول طفيل الغنوي الشاعر الجاهلي المعروف:

فمالئُ كرام الناس وانم إلى العلا ودعْ من غوى لايُجْدِيَّنْ لكَ طائرُهْ

ولا تكُ من أخْدان كُلِّ يَراعةٍ خريعٍ كسقْبِ الباز جُوفٌ مَكاسرُهْ

وفى إطار هذه الوصايا المبنية على النهي والأمر، يقول الشاعر الحساني:

لااتقيسْ اجَّيَّدْ بالسيفء ما ايقيسْ اجَّيَّدْ لعْنيفْ

ولا تعاملْ بالمتنْ اضعيفْ ولا تْلَيَّنْ لَهْلْ العُظْمَ

ولا اتْمَيْرَدْ مِيراْلصيْفْ ولا تْزاحمْ عندْ الحَجْمَ

ولا اتعودْ اوكِيلْ اللَّيْتامْ ولااتعودْ اعءليهمء خَصامْ

هـ. الحروب:

إن البيئة الشحيحة الموارد ،التى تعيش فيها هذه القبائل السائبة، تجعل الحروب حتمية لامناص منها ، ولكن قوانين الصحراء لاتتخلى —في الغالب– عن البعد الأخلاقى لهذه الصراعات والحروب، فالفروسية منظومة من القيم فيها البسالة والحفاظ على الكرامة ،والذود عن الحريم ، ومساماة الأقران فى ساحات النضال، وقد سجل الشِّعْرانِ:– الجاهلي والحساني– تقاطات فى نقاط متعددة ، تندرج تحت موضوع الحروب ، وذلك مثل:

الأناشيد الحربية

وهي تشبه بلغة العصر الأناشيد الوطنية للدول ، وقد كانت سُنَّةً أصيلة، يقتضيها ترسيخ الشجاعة، وبث روح الحماسة فى وجدان أبناء القبيلة ، حفاظا على البقاء، وحرصا على الذكر الحسن، الذى تتوارثه الأجيال كابرا عن

كابر، طبقا لمقتضيات التدافع والتنافس بين الناس، الذين هما من السنن الكونية الأكثر حضورا فى بيئة الصحراء، يقول الشاعر الجاهلي عمروبن كلثوم:

نعمُّ أناسنا ونعفُّ عنـهـمْ ونحملُ عنـهـمُ ما حمَّلونـا

نطاعنُ ما تراخى الناس عنّا ونضربُ بالسيوف إذا غُشِينا

بسُمْرٍ من قنا الخطيّ لُـدْنٍ ذوابلَ أوْ ببيضٍ يعْتلينـــا

نشقُّ بها رؤوسَ القوم شقًّـا ونخترمُ الرقابَ فتختلينـا

ويقول الشاعر الحساني مخلدا النشيد القومي للقبيلة المذكورة هنا:

أولادْ جعفرْ بنْ داودْ واخْبارنَ ما تُـهـاودْ

مَتْعلمينْ ابْتْكـــاودْ فخْيامْنَ كمْ منْ مَـدَّ

طمَّاغْ ومْنينْ الْـداودْ في الشرْ تَنْسَلْ العِدَّ

إظلْ في الجَوْ امْراودْ لحْديدء واحْدَجْ تَنْكَرْدَ

وُلا كَطْ حَدْ انَّ هـاودْ مَا صدْ وجْهُ ما صَدَ

-الثأر = الدين

إن طبيعة الحروب المفتوحة بين مجتمعات الصحراء السائبة، فى غياب أي سلطة مركزية، تقتضى سجالا بين النصر والهزيمة،مما يتولد عنه الثأر والثأر المضاد فى جدلية لا نهاية لها،حسب ما كان عليه الحال فى مجتمع الجاهلية، ومجتمع البيضان، قبيل ميلاد الدولة الحديثة ، وهذا ما جعل الثأر لدى المجتمعين يسمى "دَيْنًا"، إلزاما للأفراد والجماعات بالمطالبة به ، وعلى ضوء هذا يقول الشاعر الجاهلي زهير بن جناب الكلبي:

فدونكم ديونا فاطلبوها وأوتارا ودونكم اللقاء

فإنا حيث لانخفى عليكم ليوث حيث يحتضر اللواء

ويقول الشاعر الحساني سدوم ولد انجرتو، فى مدح امحمد شين ولد بكار ولد أعمر:

أهْلْ أعْمرْ ثمْرة قريشْ ومْعاهمْ مقطوعْ الفَيْشْ

الأرض، والمرأة، والأخلاق، والحروب ،وهذه القواعد الأربع الأساسية – بما اندرج تحتها من نقاط — تعتبر ثوابت مكينة ومتواشجة فى الحياتين الجاهلية و الحسانية معا

وعلى كل حال يبقى الموضوع مفتوحا، و مغريا بالكثير من الغوص، واعدا بمزيد من الدرر الثمينة، لمن تجشم عناء السباحة فى الأعماق، إلا أننا الآن بحاجة إلى أن نلتقط أنفاسنا، ريثما تتاح لنا فرصة المعاودة لاحقا بإذن الله.

المراجع المعتمدة

https://sadanatoualharf.com/node/1255-

https://elalem.info/article7336.html